أليس والكاهن لاسماعيل الأمين
التّأريخ بعين القلب

«أليس والكاهن» لإسماعيل الأمين كتابٌ صدر مؤخَّراً عن دار النَّهضة، نقرأ على الغلاف أنه رواية فينيقيَّة، ما يثير سؤالاً مفاده: هذا الوصف: فينيقيّة، على الغلاف، أما كان ممكناً أن يترك للقارىء كي يستنتجه، وهو يقرأ الرواية؟

كان ذلك ممكناً، ولكن، كما يبدو، أراد المؤلِّف أن يشكِّل فضاء القراءة، الذي يسهم العنوان في تشكيله، فوجود الكاهن يحيل إلى زمن ما قبل الدِّيانات السماوية، وفي هذا الفضاء يطرح سؤال آخر: ما هي علاقة المرأة أليس بالكاهن؟ وهذا السؤال يثير فضول القارىء، فيبدأ القراءة، وهو يريد أن يعرف ماذا حدث، في فينيقيا بين أليس والكاهن، وفي ذهنه تصوُّرات كثيرة لعلاقات يمكن أن تقوم بين امرأة اسمها أليس والكاهن.

وإذ يبدأ القارىء القراءة، يقرأ في التوطئة التي تتصدَّر الكتاب خطاباً يتحدَّث عن الخرافة والأسطورة والتَّاريخ، ما يثير سؤالاً مفاده: ما وظيفة هذه التَّوطئة؟ المعروف أن التَّوطئة توطِّىء/ تسهِّل للقارىء القراءة، أو تجعل حائط القراءة العالي وطيئاً/ ممهَّداً، فهل تنهض هذه التوطئة بمهمَّة تسهيل القراءة والتمهيد لها من طريق جعل القارئ يقرِّر نوع النَّصِّ الذي يقرأه: خرافة أو أسطورة أو تاريخ، بعد أن توضِّح له التَّوطئة ماهيَّة كلِّ نوع من هذه الأنواع والفروقات بينها؟

وإذ تتمّ قراءة الكتاب، وفي ضوء مفهوم كلٍّ من الخرافة والأسطورة، يتبيَّن أنَّ ما يتضمَّنه الكتاب ليس من الخرافات ولا من الأساطير، فالخرافة قصَّة متخيّلة، ليس لها مرجع واقعي، ذات مغزى أخلاقي، شخصيَّاتها، في الغالب،

حيوانات ترمز إلى بشر معيَّنين، والأسطورة قصَّة متخيّلة تروي حدثاً خارقاً ينمو في سياق غير مسبَّب، شخصياتها آلهة أو أنصاف آلهة، وظيفتها تقديم معرفة أقرب إلى الحلم الذي يحقِّق للإنسان الحالم رغبةً مقنَّعة.

ليس في الكتاب شيء من الخُرافات أو الأساطير، ما عدا ما ورد في «التوطئة» عن «انتقام آلهة الفينيقيين»؛ إذ يمكن أن نعدَّ حدث الانتقام حدثاً أسطورياً، وهو ينتظم في سياق النَّص الرِّوائي الذي يوطِّئ له؛ فالحدث هذا والنَّص الذي يليه ينطقان بدلالة مفادها «عظمة الفينيقيين»، والنَّص يتبيَّنها، كما تفيد «التَّوطئة» بعين القلب، ويقرأها في كتاب لم يكتب بهذه العين التي لا تخطىء؛ وذلك لأن الفينيقيين الذين علَّموا العالم الكتابة لم يكتبوا تاريخهم. ولهذا فإن قراءته أشدُّ تعقيداً من القراءة بين السُّطور.

وهكذا يبدو واضحاً أن هذا الكتاب يتضمَّن هذه القراءة بين سطور المؤلَّفات التاريخيَّة، بعين القلب، أي من منظور الحبِّ والتقدير والإعجاب، ما يعني أنَّ القارىء يقرأ في هذا الكتاب سطوراً دوَّنها المؤلِّف، بعد أن أجرى قراءة بين سطور التاريخ. لكن لِمَ صنَّف المؤلِّف كتابه رواية، طالما أنه كتب تاريخاً كان ثمره قراءة أشدّ تعقيداً من القراءة بين السُّطور؟

بغية الإجابة عن هذا السؤال، نعود إلى الكتاب، فنقرأ فيه قصَّة زواج «إيناس» بن «أمنون» الصُّوري من «أليس» ابنة «هيسدرو» الصيداوية، وإبحارهما برفقة «جنات كاهن» إله الخصب في رحلة بحرية طويلة، يزورون خلالها موانىء البحر الأبيض المتوسِّط، ويعودون...،

وإذ يمضي الرَّاوي في سرد وقائع الرِّحلة، يقطع السِّياق، بعد أن يقرِّر العروسان العودة، ويروي وقائع بعثة هنو «الاستكشافيَّة». و«هنو»، كما يقدِّمه القصّ هو «أعظم بحَّار في فينيقية، وربَّما في العالم...»، والسؤال الذي يطرح هنا: ما علاقة هنو بقصَّة العروسين؟ ومن هو «هالي» الذي أسهم في تمويل «بعثة هنو»؟ ثم يعرف السَّرد قفزة، ونلتقي بـ «أليس» وهي تخرج من صور إلى صيدا، بعد أن ذهب زوجها في تجارة إلى عسير وتهامة، وتصطحب «ابنيها اللذين يسكنان في قصر أبيهما وابنتها التي سترافقها في قصر جدِّها»، يكمل

الرَّاوي سرد هذه القصَّة إلى أن تنتهي بوفاة الزوجين، ومواصلة أبنائهما سعيهما المتنوِّر.

السؤال الذي يطرح هنا هو: أين التَّاريخ في هذه القصّة؟ في الإجابة عن هذا السُّؤال، نرى أن هذه القصَّة متخيَّلة تجري أحداثها في مدن الفينيقيين وزمنهم، وقد تكون بهذا المعنى قصَّة تتَّخذ مادَّتها من التَّاريخ، وليست تاريخاً، فالتَّاريخ كُتب في سياقها، فكانت إطاراً له، وهذا النَّوع من الكتابة يوظِّف الحدث القصصي، وخصوصاً العاطفي، في تقديم المعرفة، أيّاً يكن نوعها.

والمعرفة، في هذا الكتاب، معرفةٌ تاريخيّة، موضوعها التاريخ الفينيقي، وهو كما نقرأه، ونحن نتابع الحدث القصصي، لا يقتصر على التاريخ السِّياسي وإنما يشمل مختلف شؤون الحياة، ما يجعلنا نقول: إنه تاريخ حضاري للمرحلة التاريخيَّة الفينيقيَّة، يشمل النِّظام السِّياسي والاقتصادي والعادات والتقاليد والعمارة والدِّين والثَّقافة والعلاقات مع الشعوب الأخرى، ويتطرَّق إلى مسائل خلافيَّة، منها:

إقامة مملكتي اليهود في عسير ومجيئهم إلى فلسطين؛ حيث استطاعوا، خلال نزاع ورثة الإسكندر الكبير، وبعد أن حظوا بحماية الفينيقيين، «من تأسيس دولة صغيرة في أراضٍ كان قد وصل إليها شعب هجر غرب الجزيرة العربيَّة، بسبب اعتداءات مملكة إسرائيل هناك، وعمَّر تلك الأراضي جنوب فينيقية، إنَّه شعب «الفلستين» الذي سُمِّيت بلاده فلسطين، وجاورت بسلام حدود فينيقية الجنوبية». وعلاقات بلقيس، التي أحبَّت الفنَّان الفينيقي حورام «أبيف»، وصارت تلتقيه سرّاً، فأرسل سليمان الحكيم، بعدما علم بالأمر، من قتله... (ص. ٢٢٢). وصلب السيِّد المسيح الذي قال «هيما» الفينيقي عنه: «إنَّه فينيقي من هنا، من قانا، ومن أبناء القربى القريبة جدَّاً». (ص. ٢٣٥). وكل ما كان يمكن الفينيقيين فعله له: «هو الطَّلب إلى القيصر الروماني بإنزال الجسد الطَّاهر عن الصليب، ودفنه كما يليق بفينيقي يُتَوقَّع لكلماته أن تُعيد بناء العالم» (ص. ٢٣٧).

ويخطّىء، في بعض هذه المسائل، المؤرِّخين، ومنهم «هيرودوت الشهير» الذي يتهمه بالعنصرية (ص. ٦٨) والتَّهوُّر (ص. ٦٩) فيقدّر أن الحقيقة التاريخيَّة، في أصل الفينيقيين، التي دوَّنها المؤسسون الفينيقيون لعلم التاريخ، وعلى رأسهم «سنخانياتين» المؤرخ الأول من العالم، الذي ولد في بيروت وعاش في صور؛ حيث نشأت على راحتيه علوم التاريخ والجغرافيا، هي أن الإنسان سكن فينيقيا منذ أقدم العصور، وأنَّ الفينيقيِّين لم يأتوا من عسير وتهامة (ص. ٢٠٥). كما يذكر أنَّ «هيرودوت» و«هوميروس» افتريا على الفينيقيين (ص. ٧١).

قد يكون هذا أنموذجاً دالّاً على المنظور الذي يرى منه الرَّاوي، في هذا الكتاب، إلى فينيقيا وإنجازاتها، على مختلف المستويات، ومن اللَّافت الرَّبط بين الصِّفات الخَلقيَّة والخُلقية، وجعل الثانية مشكِّلة للأولى، كما نقرأ عن الأنف الفينيقي: «الأنف الفينيقي اتخذ هذا الشكل الملكي، جيلاً بعد جيل، لكثرة ما تطلَّع الفينيقيون إلى الآفاق البعيدة نهاراً، ونجوم الاهتداء البحري ليلاً» (ص. ١٣٠).

إنّ إسماعيل الأمين، في هذه الرِّواية، يكتب قصَّة حبّ، ويؤرِّخ، في سياقها، بعين القلب، ويبدو واضحاً أنَّه بذل جهداً كبيراً في جَمْع المادَّة التاريخيَّة وصوغها ونظمها في سياقٍ قصصيٍّ يتكوَّن من عناصر كثيرة، تنتظم لتشكِّل رواية تقدِّم معرفةً تاريخيَّة شيّقة ترقى بالفينيقيين إلى مستوى صنَّاع الحضارة في عصرهم، والمسهمين في صنع الحضارة العالميَّة.

❐❐❐